

الفصل الأول

الملك الإله

تفتقر معرفتنا للتنظيمات السياسية التي كانت سائدة في مصر في عصر ما قبل التاريخ والفترة المبكرة من عصر ما قبل الأسرات إلى التأكيد. وإن كان من المعتقد أنه قد قامت وحدات ضمت العديد من التجمعات والقرى كان لكل منها زعيمه الذي له السلطة عليها ويفصل بين أفرادها. تبع ذلك أن تكونت مجموعة من الأقاليم في الدلتا والصعيد كل له اسمه وعاصمته ومعبوده أو رمزه. وأخيراً كان أن تجمعت هذه أقاليم أو مقاطعات الدلتا في مملكة واحدة لها ملك يلبس تاجاً أحمر وعاصمتها «بوتو»^(١) ومعبودها الرئيسي «حورس»^(٢)، وكذلك تجمعت أقاليم ومقاطعات الصعيد في مملكة واحدة كان على رأسها ملك يلبس تاجاً أبيض وعاصمتها «نخب»^(٣)، ومعبودها الرئيسي «ست». وإن عُبد «حورس» في كلتا المملكتين، ولهذا كان ملوك هاتين المملكتين يلقبون بـ «خدام حورس». هؤلاء الملوك الذين صبغهم المصريون بصبغة دينية إذ اعتقدوا أن أرواحهم بعد الموت تكون واسطة بين الناس والآلهة. وبمرور الزمن اعتبر هؤلاء الملوك أشباه آلهة، ومن هنا يمكن أن نتصور مدى ما كان لملوك هاتين المملكتين من نفوذ وسلطان.

ثم جرت محاولات أولية لتوحيد المملكتين وكان ذلك حوالي ٣٤٠٠ ق.م حيث نجحت مملكة الشمال في القضاء على استقلال مملكة الجنوب وتحققت أول وحدة في تاريخ مصر. غير أنه لم يقدر لهذه الوحدة أن تعيش طويلاً، فكانت الوحدة الثانية على يد أحد ملوك الجنوب ويسمى «ميناء» وهو الاسم الذي يحتمل أن يكون تحريفاً لاسم «نارمر» الذي يظهر على لوحة التوحيد (صورة ١) لابساً التاج المزدوج وكان ذلك حوالي ٣١٠٠ ق.م. ثم قامت الأسرة الأولى وتلتها الأسرة الثانية في الفترة التاريخية فيما بين ٣١٠٠ - ٢٦٨٦ ق.م على وجه التقريب. وكان الملك يلقب منذ الأسرة الأولى بلقب «حور» بمجرد اعتلائه العرش أي إنه صورة حية من هذا الإله تعيش على الأرض.

(١) حالياً إبطو، إحدى قرى مركز دسوق.

(٢) ابن ايزيس ووارث أبيه أوزوريس، والمنتقم له من أخيه «ست» كما تقول أسطورة إيزيس وأوزوريس.

(٣) حالياً عزبة الكاب بمركز إدفو.

ولقد كان رأس الدولة وله الرئاسة العليا فى شئون التشريع والحكم والإدارة والجيش والدين. وعادة ما تنسب سلطاته العليا هذه إلى قصره الذى كان يشرف منه على رعاياه ولذلك عرف المصريون القدماء قصره باسم «برعو» أى البيت العالى.

وكان لقصر الفرعون بابان عظيمان يمثلان الملكية المزدوجة - الصعيد والدلتا، وكانت الملكية مطلقة وأساسها قدسية الملك. كما كان الملك يُلقب بأنه «حورس الحى»، وهو ليس إلهاً مثل حورس ولكنه صورة له، وهذا يعنى وجوب الخضوع التام له، فالملك بذلك هو صورة حية للإله تعيش على الأرض، والإله هو الذى يتحدث من فمه. ولقد صورت النصوص القديمة سلطاته المطلقة بما يزيد كثيراً عما عبر به بعد آلاف السنين ملك فرنسا لويس الرابع عشر فى عهد الملكية المقدسة بمثل قوله «أنا الدولة والدولة أنا».

ثم جاءت الأسرة الثالثة (٢٦٨٦ - ٢٦١٣ ق.م تقريباً) التى كانت بداية فترة الازدهار الحضارى أو فترة الدولة القديمة أو عصر بناء الأهرام. وكان «زوسر» هو الملك الذى شهد عصره حدوث طفرة كبيرة فى فن البناء، وكان وزيره أحد أبناء الشعب «ايمحتب» (صورة ٢) مضرب الأمثال فى الحكمة وبارعاً فى الهندسة فوضع تصميم الهرم المدرج وبناه فى سقارة، والذى يعد أول بناء حجرى كبير عرفه التاريخ، وذاع صيت «ايمحتب» فى الطب كذلك، وأصبح أعظم أطباء عصره وعين فى وظيفة رئيس الكهنة ومهمته خدمة الآلهة فى المعبد وتلاوة الصلوات نيابة عن الملك. وهذا الوزير الحكيم - الذى نال شهرة كبيرة لكونه منشىء فن العمارة الحجرى بدلاً من مباني العصور القديمة المكونة من الآجر والخشب - قد اعتبره المصريون فى العصور المتأخرة راعياً للمتقين. فكان الكُتاب يحرضون على أن يسكبوا قطرات من الماء تبركاً به كلما هموا بكتابة أمر خطير. كما اعتبروه ابناً للإله «بتاح» رب الفنون والصناعة. ونسبت إليه قدرات خارقة فى الطب حتى شبهه الإغريق بإله الطب عندهم «اسكليبيوس».

ويذهب البعض إلى القول بأنه عُبد فى العصر المتأخر كإله للشفاء وسمى معبده فى سقارة بالاسم الذى أطلقه عليه الإغريق «اسكليبيون Asklepieion» وصار مصحة يؤمها المقعدون من جميع أنحاء مصر. وقد ظلت شهرته منتشرة وكرست له عدة أبنية فى كثير من المعابد بمنطقة طيبة (فى الكرنك والدير البحرى ودير المدينة) وجزيرة فيله حيث بنى له «بطليموس الخامس» معبداً. وكان ايمحتب بذلك وحتى ذلك الوقت حالة فريدة لفرد من أفراد الشعب أن يصل إلى هذه المكانة سواء فى عهده أم بعد مماته ويرجع ذلك إلى عبقريته الفذة ومواهبه المتعددة.

وتظل للملوك مكانتهم التى لا يرقى إليها أى فرد، وتزداد قداستهم حتى نهاية الأسرة الرابعة (٢٦١٣ - ٢٤٩٨ ق.م تقريباً) والتى شهدت تنظيماً عالياً فى كل نواحي الحياة يتضح من ألقاب موظفى الملك أن هناك تقسيماً للعمل، فهناك وظائف كهنوتيه ووظائف مدنية ووظائف قضائية ووظائف عسكرية ووظائف مالية. وكفاءة التنظيم الإدارى فى ذلك الوقت تدل عليه كفاءة قيادات عشرات الألوف من العمال والرؤساء الذين اشتركوا فى بناء الأهرامات.

وكانت مصر تدار من القصر الملكى فى منف حيث الملك رأس هذه الإدارة. ولقد أضيف إلى ألقاب الملك المتعددة خلال هذه الأسرة لقب «سارع» أى ابن إله الشمس «رع». وصار ابنا لكل إله فى كل منطقة ومتحد مع هذا الإله. ولنا أن نشير إلى أن الملك كان يتخذ ألقابا تدل على علاقاته المختلفة بالآلهة.

والألقاب الكاملة للملك خمسة ألقاب يتبع كل منها اسم أو كنية يوضح حق الملك الإلهى فى حكم جزأى مصر كبلد واحد. وكانت هذه الألقاب لا تتجاوز الثلاثة فى الأسرتين الأولى والثانية، وسجلتها الآثار كاملة منذ الدولة الوسطى، وإن رأى البعض أن ذكرها كاملاً يرجع إلى أواخر عهد الأسرة الرابعة (من ٢٦١٣ - ١٤٩٨ ق.م تقريباً)، وقد حفظتها التقاليد حتى عصر البطالمة والرومان.

وليس من بين هذه الألقاب السابقة لقب «فرعون». ذلك أنه جاء فى عصور متأخرة عن ذلك، وقد اشتق من الاصطلاح المصرى القديم «برعو» أى البيت الكبير. وكان فى البداية يقصد به القصر الملكى أو الإدارة الحكومية، على أنه استعمل منذ بداية الدولة الحديثة - خلال عهد الملك تحتمس الثالث - للدلالة على الحاكم نفسه. وقد انتقلت كلمة فرعون إلى الكتابات العبرانية ومنها إلى مفردات اللغة العربية.

وابتداء من عهد الملك سنفرى أول ملوك الأسرة الرابعة الذى لقب بـ «نب ماعت» أى رب العدالة بجانب لقب آخر وهو «الملك الفاضل» وضع اسم الملك فى خرطوش لتمييزه عن بقية أفراد الشعب أو للدلالة على مكانته. وقد يرمز الخرطوش والذى يمثل فى صورة انشودة حبل بقاعدتها عقدة إلى ما ترسب فى عقيدة المصريين من أن الكون هو ما تحيط به الشمس، أو أنه يرمز إلى أن اسم الملك الذى بداخله محيط بكل شىء يدور فى مملكته أو أن الدنيا ملكاً للملك.

ومن المرجح أن الكهنة قد بدأوا يشعرون بعدم الرضا إذ إن فراعنة هاتين الأسرتين

(الثالثة والرابعة) سَخَرُوا الشعب كله فى بناء الأهرامات التى ما هى إلا مقابر لهم، ولم يهتموا ببناء معابد تقام فيها تماثيل الآلهة وتقدم لها القرابين الكثيرة التى تؤول فى النهاية إلى الكهنة فينعمون بها. واستمرار هذا يمثل تهديداً لأرزاقهم وما كان يعود عليهم من عطايا وهبات فأزعموا تغيير الأسرة الحاكمة. وترغم هذه الحركة كهنة «رع» بمدينة عين شمس فأشاعوا أن «رع» كان غير راض عن الملك خوفو الذى بنى الهرم الأكبر، وكذلك سمح لابنه وحفيده ببناء الهرمين الثانى والثالث، وأن «رع» أراد أن يحكم مصر من بعدهم ملوك يفوق تقديسهم للإله تفكيرهم فى تشييد مقابرهم الضخمة، ملوك يشيدون المعابد ويقدمون القرابين على المذابح ويكسدونها ويجعلونها كثيرة وافية. ورأى كهنة «رع» أن يقوموا هم أنفسهم بتأسيس الأسرة التى تحكم البلاد، ولكنهم اصطدموا بالشرعية التى تقضى بأن يكون الملك من سلالة ملك.

وهنا تفتت ذهنهم عن حيلة ذكية تكسب الملك الجديد - منهم - شرعية أقوى. وهو أن يكون الملك من سلالة الآلهة! وقد أصبحت هذه الأسطورة ذات أثر كبير فى علاقة الملوك بالآلهة فى كل الأسرات التالية. وأشار كهنة هليوبوليس: أن الإله «رع» قد اختار زوجة كبير الكهنة وجعلها تحمل منه وتلد بمساعدة الآلهة ثلاثة أبناء هم باكورة جيل جديد من الملوك أعطاهم خنوم «رب الخلق» أعضاء قوية وأعطتهم «إيزيس» أسماءهم وجعلتهم الآلهة ملوكاً حقيقيين سيتقلدون الملك فى هذه البلاد بأجمعها. وهكذا تولى الملك هؤلاء الملوك الثلاثة الواحد تلو الآخر باسم «أوسركاف» و «ساحورع» و «كاكاى» وهم أول ملوك الأسرة الخامسة. وبهذا صار جميع الفراعنة بدءاً من الأسرة الخامسة يدعون أنهم من نسل الآلهة.

هذا الانقلاب الدينى زاد من نفوذ الكهنة كثيراً وخاصة كهنة «رع» فى هليوبوليس وزاد من تدخلهم فى الأمور الدينية والديوية. وعلى الرغم من أن ملوك هذه الأسرة استمروا فى بناء الأهرامات كأسلافهم - ربما حتى لا يكونوا أقل شأناً - إلا أن عنايتهم بها قلت كثيراً فكانت أهراماتهم صغيرة الحجم (هرم أوسركاف ٤٩ متراً وهرم ساحورع ٤٨ متراً) ولكنهم زادوا من اهتمامهم بالمعابد، وإن كان آخر ملوك هذه الأسرة «ونيس» قد قدم ما عوض ضالة حجم هرمه بتزيين جدران حجرة الدفن والقاعة المؤدية إليها بنصوص دينية وأسطورية نعرفها باسم «متون الأهرام»، أما سقف الحجرة فزينوه بأشكال النجوم حتى بدا كقبة سماوية تظل جثة الفرعون وتحتويها. وبعد أن كانت المعابد جنازية ومقامة بجوار الأهرامات محجوبة عن الشعب أصبحت مكشوفة للناظرين وأقيمت مسلة ضخمة على هرم ناقص، وكانت المسلة هى رمز إله الشمس «رع».

وارتفع نجم «رع» كثيراً وأصبح اسمه يضاف إلى أسماء الآلهة الأخرى، سوبك رع - مونت رع - خنوم رع وهكذا.... وبلغ إله الشمس في شخصيته الجديدة «ملك الآلهة» أسمى درجات التقدير حتى إن «آمون» نفسه إله طيبة أصبح اسمه «آمون رع». وبالطبع كثرت المعابد وكثرت القرابين وزاد الكهنة ثراءً وقوة وخاصة كهنة «رع». واهتم ملوك هذه الأسرة بمعبد إله الشمس في عين شمس، كما أقاموا على نسقه ستة من المعابد لهذا الإله. ولم يضع المصريون في معابد إله الشمس تماثيل ولم يقيموا بها محاريب مغلقة. وكانوا يتوجهون بدعائهم مباشرة إلى قرص الشمس في السماء وكانوا يقدمون القرابين شرق مسلته واستمرت هذه المظاهر تميز عبادة الشمس عن غيرها من عبادات بقية الآلهة في مصر القديمة. وقد حرص الملوك على تزيين جدران المعابد بكل ما يرمز إلى قدرة إلههم وعظمتهم وأثره في الحياة.

واستمرت مكانة الملك ابن الآلهة قوية لها المهابة والتقدير حتى شهدت مصر تطورات سياسية واجتماعية بعد عهد الملك «تتي» مؤسس الأسرة السادسة (٢٣٤٥ - ٢١٨١ ق.م تقريباً) حيث علت مكانة كبار الموظفين وازدادت سلطة الوزير واتسعت أكثر كما زاد نفوذ حاكم الصعيد وحكام الأقاليم، وطفقت على السطح محاولات للاستقلال عن سلطة الملك والدولة. وبدا الملك عاجزاً عن وقف هذا التيار، وإزاء ذلك حاول الملوك أن يقللوا آثاره الضارة عن طريق زيادة التودد لهؤلاء الحكام.

ومع نهاية هذه الأسرة تزايد ضعف الملوك ولم يعد يربط أغلب حكام الأقاليم بالعرش سوى ولاءٍ شكلي، ثم تفككت السلطة المركزية على أثره لتدخل مصر في عصر جديد من الاضطراب والتفكك يعرف بعصر الاضطراب الأول وشمل الأسرات من السابعة وحتى العاشرة.

وكانت الأسرة السابعة (٢١٨١ - ٢١٧٣ ق.م تقريباً) لا تزيد عن كونها تجمعاً من النبلاء تمركز في منف في الشمال في محاولة لأن يمسكوا معاً بالسلطة المركزية المنهارة. أما الأسرة الثامنة (٢١٧٣ - ٢١٦٠ ق.م تقريباً) فقد مارس ملوكها بعض السيطرة من منف على عدد من أقاليم الجنوب تمتد حتى «قفط» التي عثر فيها على نصوص تحمل أسماءهم. أما باقي مصر فقد استقل حكام الأقاليم بالحكم فيها بل وتحولوا بمرور الوقت إلى أمراء وراثيين.

على أن الإقليم الذي كانت له الريادة في محاولة توحيد مصر كان الإقليم الثاني عشر من أقاليم مصر العليا وعاصمته هيراكوبوليس (مدينة أهناسيا الواقعة عند مدخل الفيوم). فقد عاصر نهوض الحكم في هذا الإقليم انهيار الأسرة الثامنة ليبدأ عصر جديد يسمى بالعصر

الأهناسى شمل الأسترتين التاسعة والعاشرية أى فى الفقرة بين (٢١٦٠ - ٢١٣٠ ق.م. تقريباً). وتضم الأسترتان ١٩ ملكاً حكماً من أهناسيا لم ينجحوا جميعاً فى فرض سيطرتهم على كل الأقاليم وإن كانوا قد أقاموا نظاماً قوياً وثابتاً فى الجزء الشمالى من البلاد.

وكان حكام طيبة قد نجحوا فى الاحتفاظ باستقلال إقليمهم عن الحكومة المركزية فى أهناسيا وإن اعترفوا لها بالولاء الاسمى. ثم نجحوا بعد ذلك فى فرض سيطرتهم على كل أقاليم الجنوب ليدب بعد ذلك صراع طويل بينهم وبين ملوك أهناسيا فى الشمال ينتهى بانتصارهم عليهم. ويتم توحيد البلاد تحت سيطرتهم على يد ملك يدعى «منتوحتب نب حبت رع» الذى يبدأ بعهد عهد جديد على مصر وهو عصر الدولة الوسطى. وشملت حكم الأسترتين الحادية عشرة والثانية عشرة أى من ٢١٣٣ - ١٧٨٦ ق.م تقريباً.

ولم يكن الملك فى بداية الدولة الوسطى يسيطر على الدولة بصفته إليها يحيا على الأرض أو ابناً للإله كما كان فى الدولة القديمة. فلم تكن أرض مصر كلها ملكاً للملك، وإن كان يحكم البلاد من أقصاها إلى أقصاها، ولكن ليس بنفس القدسية والقوة التى كانت له فى عهد الدولة القديمة. وقد يرجع السبب فى ذلك إلى أن مصر فى هذه الفترة كانت تتكون من مجموعة من ولايات إقطاعية مفككة يتمتع حكامها بنفوذ واسع. ولم يكن من السهل القضاء على نفوذ وسلطان حكام الأقاليم فى بداية هذه الدولة بل كان من الصعب القضاء التام على سلطانهم. وكان من نتيجة ذلك أن سقط الملك فى عصر الاضطراب الأول (السابق) وبداية الدولة الوسطى من عليائه الإلهية لكونه منسوباً للإلهة أو ابناً لهم أو مكانته المحاطة بالرهبة والقدسية وأصبحت له هيئة الحاكم فقط.

ولقد تمكن الملوك العظام فى هذه الدولة من تجميع السلطة فى أيديهم ونشر العدل. وفضلوا لأنفسهم أسماء تعبر عن رغبتهم بأن يكون الحق والعدل «ماعت» رائدهم. فتكررت كلمة «ماعت» فى نصوص الأسرة الثانية عشرة، كما تكررت كلمة «الصدق» أو «العدل» فى نصوص هذه الفترة. فقد اتخذ أمنمحات الثانى مثلاً اسم «الذى يسره العدل» و «ذو الصوت الصادق». وفضل سنوسرت الثانى لقب «الذى يرفع شأن العدل»، أما أمنمحات الثالث فعرف باسم «المنتهى إلى عدل رع»، وكان لقب أمنمحات الرابع «رع هو صادق الصوت». ولقد فضل ملوك هذه الأسرة أن تكون «ماعت» رائدتهم قدموها قرباناً للإلهة ومنحة للبشر.

ولقد كانت ماعت تجسيدا للعدالة والحقيقة. وصورت فى هيئة امرأة رشيقة صغيرة جالسة وتضع ريشة نعامة فوق رأسها واستعمل هذا الرمز فى كتابة اسمها. وكانت كذلك

صنجة الحق توضع في الميزان لوزن قلب الميت عند المحاكمة لمعرفة ما إذا كان «ماعتياً» أي يطابق ماعت أو إنسان خيّر ، فيقارن قلب الشخص الميت عند المحاكمة بالحقيقة. وكان الوزير ، الذي هو رئيس كافة المحاكم في مصر ، «كاهن ماعت» وكان يتكلم بناءً على وحيها ، فلا يكذب. فضلاً عن استعمال كلمة ماعت للتعبير عن صور كثيرة للحقيقة واستعمالها القضائية فإنها كانت تصف شيئاً آخر أعظم من ذلك بكثير فكانت تطلق على توازن العالم كله وتعايش جميع عناصره في انسجام.

وتعرضت مصر منذ الأسرة الثالثة عشرة (من ١٧٨٦ - ١٦٣٣ ق.م) وطوال قرنين أي حتى الأسرة السابعة عشرة (من ١٦٥٠ - ١٥٦٧ ق.م) للضعف والانحلال واجتازت فترة أخرى مظلمة كانت أشد من تلك التي تلت انهيار الدولة القديمة في الاضطراب الأول ، فتحكم فيها ملوك ضعاف أسسوا الأسرة الثالثة عشرة. وهي أسرة تكونت كما نقل عن مانيتون^(١) من ٦٠ ملكاً حكموا في طيبة في الجنوب فترة ٤٥٣ سنة. تلتها الأسرة الرابعة عشرة وتكونت من ٧٦ ملكاً واتخذوا من مدينة «سخا» في غرب الدلتا عاصمة لهم ، وحكموا ١٨٤ سنة.

أما الأسرة الخامسة عشرة فتكونت من ستة ملوك من ملوك الهكسوس الغزاة ، وحكموا فترة ٢٨٤ سنة.

وتكونت الأسرة السادسة عشرة من ٣٢ ملكاً من ملوك الهكسوس أيضاً وحكموا فترة ٥١٨ سنة. ولم يستطع ملوك الهكسوس في الأسرة السابعة عشرة التحكم في جميع الأراضي المصرية وذلك بعد أن اشتعلت روح الوطنية لتحرير مصر ، واستطاع أبناء مصر في طيبة حماية الصعيد من المستعمر ولم يبق أمام الهكسوس إلا الاكتفاء بشرق الدلتا وإن امتد نفوذهم فشمل الدلتا بأكملها. وكان عدد ملوك هذه الأسرة طبقاً لمانيتون ٤٣ ملكاً حكموا ١٥١ سنة.

وتنتهي هذه الفترة من تاريخ مصر بانتصار المصريين في الجنوب على الهكسوس في

(١) هو كاهن من مدينة سمنود عاصر الملك بطليموس الثاني (٢٨٣ - ٢٤٥ ق.م) وكان على جانب كبير من الثقافة وملكاً باللغتين المصرية القديمة واليونانية ومتعمقاً في الديانة والتاريخ المصري القديم. وقد كلفه الملك بطليموس بكتابة تاريخ مصر ، وقد اعتمد أغلب الظن في كتابة تاريخه لصر على القوائم السابقة بالإضافة إلى ما كان موجوداً في المعابد من وثائق تاريخية مختلفة. وقد ظهر كتابه باللغة اليونانية تحت اسم Aigiptiaka ، بدأ فيه بتاريخ مصر بحكم الآلهة فأنصاف الآلهة وقسم التاريخ إلى ثلاثين أسرة تبدأ من الملك ميثا وتنتهي بدخول الاسكندر الأكبر مصر عام ٣٣٢ ق.م. وكان تاريخه بمثابة البحث الأكبر والجامع عن تاريخ أجداده.

الشمال ليبدأ عصر جديدا هو عصر الدولة الحديثة، وكان ذلك على يد الملك أحمس الأول مؤسس الأسرة الثامنة عشرة (من ١٥٦٧ - ١٣٢٠ ق.م). وتشمل هذه الدولة الأسرات من الثامنة عشرة إلى العشرين (من ١٥٦٧ - ١٠٨٥ ق.م).

ومع امتداد النفوذ المصرى وتوسع الإمبراطورية فى الدولة الحديثة اضطر الملك أن يلقى عبء السلطة، بعد أن كان سيد البلاد المطلق فى الدولة القديمة، إلى عدد من الموظفين الكبار فى الدولة. وكان أهم هؤلاء الموظفين كبير كهنة الإله آمون فى معابد الكرنك، ووزير الوجه البحرى، ووزير الوجه القبلى ونائب الملك فى كوش فى الجنوب والذى اتخذ بعد ذلك لقب «ابن الملك فى كوش». وهى وظيفة أمر الملك أحمس بإنشائها ليتحمل شاغلها مسئولية حكم بلاد النوبة وحماية مناجم الذهب بها والدفاع عنها والحفاظ عليها. وغالباً ما كان يتولى هذه الوظيفة ولى العهد ليتمرن على الإدارة فيها. بينما كانت وظيفة قائد الجيش ومسئولية توسع الإمبراطورية فى آسيا من مسئوليات الملك الحاكم.

ولم يكن لسلطات هؤلاء الموظفين أو أصحاب الوظائف العليا أى نفوذ طالما كان الملك الحاكم قويا، أما إذا كان ضعيفاً عاجزاً عن موازنة السلطة، فغالباً ما يحاول معاونوه الأقوياء انتزاع هذه السلطة والاحتفاظ بها. وكان يعمل تحت رئاسة الملك وكبار موظفى الدولة مجموعة من الموظفين المدنيين ورجال الدين. فقد كانت مصر دولة دينية لا ينفذ فيها شىء مدنى دون أن يباركه رجال الدين.

اهتم ملوك الدولة الحديثة بالوراثة الشرعية للسلالة الملكية، إذ إن الصفة الإلهية للملوك مصر القديمة كانت تنقل عن طريق النساء، وليس عن طريق الرجال، ولهذا كان المهم أن يكون ولى العهد ليس فقط ابن ملك ولكن أيضا ابنة أميرة من الدم الملكى. فظهر فى عهد الملك أحمس الأول - للمرة الأولى - لقب «الزوجة الإلهية لآمون» وكان يطلق على زوجة الملك وأم أولاده التى تقوم بدور دينى مقدس فى المعبد. وعلى هذا أصبح من المفروض أن يكون ولى العهد ابن أميرة بنت ملك وزوجة ملك وبنت الزوجة الإلهية لآمون.

وقد يلجأ الملك أو الملكة إلى المصدر الإلهى لكى يهرب من تقاليد الوراثة الشرعية مثلما فعلت الملكة حتشيسوت، ومن بعدها الملك أمنحتب الثالث، لتبرر أحقيتها فى ارتقاء العرش وذلك عن طريق التناسل الإلهى، والانتساب إلى الإله آمون إله الدولة. وبهذا يصبح ابن الإله أو بنت الإله ويتفوق أو تتفوق على أبناء البشر. حيث تكررت الأسطورة التى ابتدعها كهنة إله الشمس فى هليوبوليس فى الدولة القديمة مرة ثانية فى الدولة الحديثة

ولكن فى طيبة هذه المرة ومع الإله «آمون»، إذا جاء فى النقوش على المعابد ما ملخصه أن الإله «آمون» أراد أن ينجب ملكاً يقوم بتشبيد (منازل) للآلهة وتكثر على يديه القرابين التى تقدم لها فكان أن اختار زوجة الملك تحتمس الأول، وعندئذ تقمص آمون شكل زوجها الملك تحتمس واضطجع مع الملكة التى قالت له: «لقد أسبغت على جلالتي من عظمتك وتسرب نذاك فى كل أعضائي» ثم حملت وولدت وسميت الابنة (حتشبسوت) كما أمر بذلك «آمون رع».

ويستمر انتساب الملوك إلى الآلهة مدعين أنهم أبناء لهم، حتى لقد كان تحتمس الثالث (الأسرة الـ ١٨) على درجة عالية من الأخلاق والتواضع إذ يقول عن نفسه: «إنى لم أنطق بكلمة مبالغ فيها ابتغاء الفخر بما عملته فأقول إنى فعلت شيئاً دون أن يفعل جلالتي ولم آت بعمل فيه مظنة، وقد فعلت ذلك لوالدى الإله آمون لأنه يعرف ما فى السماء ويعلم ما فى الأرض ويرى كل العالم فى طرفة عين».

وتكررت القصة مرة أخرى مع رمسيس الثانى إذ تقول: إن الإله (بتاح) قد أكد لرمسيس الثانى أنه قد تنبأ بالأعمال العظيمة التى سيصنعها له هذا الملك فقال:

«اضطجعت بجانب أمك الجميلة لكى تلدك وأصبحت أعضاؤك كلها إلهية!»

وقد دونت هذه القصة فوق جدران معبد أبى سمبل الذى بناه رمسيس الثانى. وما دام الملك قد ولد كابن للإله فلا بد أنه لا يموت ميتة الآدمى فإذا ما انتهت حياته السعيدة فهو يصعد إلى السماء ويندمج فى قرص الشمس التى خرج منها.

وهناك أشياء أخرى اكتسبها الملوك من تلك القصة المزعومة التى اعتبروها من خصائصهم كأولاد للآلهة وكائنات إلهية، فها هو ذا الملك يحمل فوق رأسه الصل مثله فى ذلك مثل إله الشمس، والصل هو ذلك الثعبان أو الأفعى التى تحرق الأعداء بزفيرها النارى، وأصبح الصل هو الرمز الملكى يضعه الملك فوق جبينه أو فوق تاجه. وأهم من ذلك أن الملك أصبح ينظر له بأن له اتصالاً خاصاً بالآلهة فهو منهم وابنهم، وهم آباؤه. هكذا كانت مكانة الملك فى مصر القديمة وهكذا كانت قدسيته.

